تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

تحيه والعصبية الإقليمية:

أنت أدرى بخلجات الأدب ، وبهذه التيارات العجيبة من الأحاسيس الغامضة التى تدفعه ليمسك بالقلم ويكتب .. أى شىء ! وما قرأتك مرة من المرات إلا هاجت النفس ، وثارت بى شهوة الكتابة ، الكتابة إليك ، لأنى أدرك تماماً أن مكانك من أدبنا العربى ، هو مكان « سانت بيف » من أدب الفرنسيين . وحتى تعلم أنى لا أجامل — إذ لست بحاجة إلى المجاملة — بل لأدفع عن شخصى الضعيف هذه التهمة حتى تعلم ذلك أقول : إنى لم أرك — وهذا يؤسفنى — إلا فى تعقيباتك التى أنتظرها كما ينتظرها الكثيرون .. أما « أداؤك النفسى » ، ووفاؤك لشاعر مصر العظيم ، فلم أقرأ منه إلا مقالا ونصف مقال ، إى وربى مقالا ونصف مقال .. وهذا يبدو عجيبا ممن أخذ بك و « تيم » بآرائك ولكن يا سيدى إذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون !

قبل أن تطلع علينا بهذا المذهب النفسى الجليل ، كنت أتوق وأتمنى لو أن فى أدبنا العربى مثل هذا المنهج فى دراسة الأدب ونقد الشعر ، هذا المنهج الذى أراه فى بعض الأحيان — متناثراً — عند هذا أو ذاك من الكتاب . فلما قرأت مقالك الأول ، وأخذت فى قراءة الثانى ، أمسكت عن القراءة وعزمت على أمر . عزمت على أن انتظرك حتى تتم هذه المقالات أو هذا المنهج فى مقالاتك النفسية ، فتضع بذلك حجر الزاوية فى بناء النقد العربى الحديث ، لأنى أردتها قراءة مترابطة آخذا بعضها بحرى بعض . ولا إخالنى بحاجة إلى أن أصف شعورى يوم كشفت عن نشر مقالاتك ، واعداً بنشرها فى كتاب يظهر فى المستقبل ، ويعلم الله متى يظهر !!

إلى هنا ياسيدى وأنا أوافقك على كل ما ترى ، وأذهب معك إلى أن « الأداء النفسى » هو المنظار الأفضل الذى يجب أن ننظر منه إلى نتاج القرائح وفيض العقول . ولكن يظهر — واسمح لى بهذه — أنى أخالفك فيمن طبق عليه هذا المذهب ذلك التطبيق الواسع ، أو فيمن يجوز أن نجده فى شعره بصورة واضحة . ومن يقرأ تعقيباتك وردودك ، ودمعة الذكرى على الشاعر الراحل ، ويضيف إلى ذلك (المقال ونصف المقال) ، يعرف أنك تقصر هذا المذهب على نابغة المنصورة ، وإن اضطررت — لسبب ما — ألا تغفل بعض من يسكنون الشام !

واستطيع أن أخرج من هذا بأن العنصرية فى الأدب ما زال لها مكان مرموق وصوت مسموع ، حتى عند أئمة النقد وحاملى لوائه — حقاً إن راية الشعر ظلت مرفوعة فى مصر ردحا من الزمن : بدأت عند البارودى ولكنها انتهت عند شوقى ، ثم حدث ما يحدث فى كل العصور ، فإن الشمس لا تشرق دائما على مكان واحد ، وهى الآن تعم أرجاء الشام نوراً وبهجة ، وتحلق فى سماء حلب ومصدرها الشاعر الفحل : عمر أبو ريشة

ولست أحب فى هذا المجال القصير أن أتحدث عن عمر شاعراً عبقريا ، وهبه الله سمة فى الخيال وامتيازاً فى « النفس » ورفاهة فى الشعور ، مما جعله شاعراً بكل ما فى الكلمة من حياة وروح وشعر — ولعل من الفضول أن أسألك قبل أن أودعك ، عما إذا كنت ياسيدى قد نظرت إلى شعر عمر بنفس العين ، ونفس الاهتمام الذى نظرت به إلى شعر على محمود طه ، ويقينى أن الأستاذ المعداوى سيغير من « قلة الاهتمام » بهذا الشاعر العظيم لو أعاد النظر فى ديوانه الأخير وقرأ : طلل ، امرأة وتمثال ، مصرع الغنان ، الروضة الجائعة ، كان لى ، فراق ، نسر ، شاعر وشاعر

لو قرأ هذه القصائد الممتازة لغير من نظرته ، ولطلع علينا بكتاب عظيم يكون درة يضمها إلى تاجه الأدبى .. وبعد ، فلعله يسعدك أنك أسعدت إنسانا بالكتابة إليك

« القاهرة » محمد بدر الدين الحاضرى

الشئ الوحيد الذى لم أكن أنتظره أو أفكر فيه ، هو أن يتهمنى قارىء فاضل بالعصبية الإقليمية ، أنا الذى حاربت هذه العصبية بكل ما أملك من جهد على صفحات الرسالة ، كلما أطلت برأسها من قلم كاتب أو لسان أديب . ومع ذلك فقد فوجئت بالقارىء الذى اتهمنى على غير ترقب وانتظار !

وأعود إلى هذا الاتهام السافر فأجده قد خلا من «الحيثيات»، وظهرت فيه النتائج واحتفت المقدمات . . إن الأديب الفاضل بدر الدين الحاضري أشبه بوكيل النيابة الذي يوجه التهمة وهو لم يقرأ من « ملف » القضية غير صفحتين . . أما تراه يخالفني فيمن طبق عليه مذهب الأداء النفسي هذا التطبيق الواسع ، منتهيا إلى أن هذا الأداء لا يتمثل في شعره بصورة واضحة ، وهو لم يقرأ من تطبيق مذهبنا على شعر علي محمود طه غير مقال ونصف مقال ؟! ما هذا أيها القارئ الصديق؟.. لقد كنت أرجوا أن تراجع نفسك بعد أن تكون قد رجعت إلى التطبيق في صورته الكاملة ، حتى تستطيع أن تهيء لحكمك من الأدلة ما يقف به على قدميه !

إن تلك النماذج الفنية التي استشهدت بها من شعر علي محمود طه ، هي الحكم الفاصل بيني وبين كل معترض على أمانة النقد وسلامة التطبيق . . ولن أضيق أبداً بأي قارئ يجادلني فيما كتبت ، ما دام نقده قائماً على أسس واعية من الفهم والذوق والمراجعة أما أن يعترف الأديب الفاضل بأنه أرجأ النظر في بقية الفصول طلبا للوحدة الموضوعية ، فقد كان يجدر به خضوعاً لهذا المنطق أن يرجيء اتهامه لنا بالتعصب الإقليمي ! !

إن إيليا أبا ماضي الذي أضعه في الطبقة الأولى من الشعراء ليس شاعراً مصريا ، ولعل القراء يذكرون أن أول تطبيق لمذهب الأداء النفسي على صفحات الرسالة كان منصباً على شعر هذا الشاعر ، حتى لقد دفعته الدهشة من أن يحتفل ناقد « مصري » بشعره ، إلى أن يبعث إلينا بتحيته الصادقة وشكره الخالص ، على لسان صديقنا وصديقه الأستاذ محمد علي الحوماني . . ماذا أقول بعد هذه اللفتة التي أذكرها لأول مرة حين دعت إليها المناسبة واقتضاها المقام ؟ !

إنني أقول للأديب الفاضل رداً على تلك التعريجة في منعطف الطريق : صدقني أنه لا يضيرنا أن تخفق راية الشعر فوق أرض سورية أو لبنانية أو عراقية ، ما دامت هذه الأرض قطعة عزيزة من هذا الثرى الحبيب ، ثرى البلاد العربية حين تجمع بينها حدود واحدة هي حدود الوطن الكبير . . ولكن القول بأن راية الشعر قد ظلت مرفوعة في مصر فترة من الزمن انتهت بانتهاء أمير الشعراء ، يعد في رأينا شطحة من شطحات الرأي العابر والحكم الطائر حين يعوزهما قوة الدليل والبرهان . . لقد نودي بمثل هذا الرأي في مصر بعد أن مات شوقي ، وحين ظهر في الأفق ذلك الشاعر الذي ملأ المكان الشاغر ، تريثت موازين النقد في إصدار الأحكام النهائية على إنتاج المعاصرين !

أما عن إشارة الأديب الحاضري إلى شعر أبي ريشة ، فلا أذكر أنه قد أخرج ديوانا دون أن أقف عند كل قصيدة من قصائده ، بل دون أن أرسل الذوق وراء كل بيت من أبياته . وياطالما وضعت ديوانه الأول « شعر » ، وديوانه الثاني الذي أخرجته مجلة « الأديب » وضم بين دفتيه كل ما قال ، يا طالما وضعتهما في بوتقة النقد وكفة الميزان . تريد رأيي في شعره ؟ إن كل قصيدة من قصائده تذكرني بروعة الجمال الآسر في (جاليتيا) تمثال بجماليون . لقد أدرك بجماليون الفنان أن تمثاله الجميل تنقصه الحركة ، تنقصه الروح ، تنقصه الحياة .. ومن هنا راح يتوسل إلى الآلهة أن تحيل الرخام الصامت إلى كيان ناطق ، أو الجسد الهامد إلى حياة نابضة. واستجابت الآلهة لبجماليون المثال، ولكنها حتى الآن لم تستجب لأبي ريشه الشاعر . إن شعره يا صديقي يزخر بالجمال والخيال ، ولكنه يفتقر إلى الروح والعاطفة ! !

كلمة إلى صديق :

تلقيت رسالتك الأولى كما تلقيت من بعدها رسالتك الثانية.. ترى هل تبلغ من الثراء هذا الحد الذي يتيح لك أن تطبع ديوانا من الشعر لتوزعه على الناس بالمجان ؟ ! إنه ليسعدني أن تكون صادقا فيما اعتزمت، لأن في ذلك حلا لأزمة القراء . . ولقد طلبت إلي أن أقوم بطبع هذا الديوان والتقديم له ، ثم رأيت أن تختار له عنوانا هو « منعطف النهر » . . عنوان جميل من غير شك ، ولكن لم تؤثر أن يظهر الديوان وهو يحمل اسماً مستعاراً بدلا من اسمك الصريح ؟ صدقني أنني أضيق بكل شيء مستعار ، لأنني تعودت أن أعيش في وضح النهار.. ثم لا تنس أن النقاد سيسألونني عن إسمك الحقيقي إذا ما كتبت مقدمة ديوانك ، وأنا لا أحب أن أتعرض لمثل هذا الإحراج !

أنور المعداوي

٣٦٠٧